



الجينيةالوجيا ومجازة ميتافيزيقا القيم عند فريدريك نيتشه

The Genealogy and excesses metaphysics of values according to Frédéric Nietzsche

أ. السنون عبد الفتاح^{*1}

¹ جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب، difference1987@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/05/28 تاريخ القبول: 2021/08/26 تاريخ النشر: 2021/09/30

Summary

The article addresses the definition of 'Genealogy' of the German philosopher Nietzsche, as it's a tool to reveal the value of origin and the origin of value at the same time. The value of this method, if that is acceptable, to discover the proportionality of values which stay disconnect with criticism. Since, its objective value, idealist, universal and absolute. However, the Genealogical researches prove that it's just a proportional values connected to the category, who has the power of decision. It means that it's connected to masters. the matter didn't continue as it was, but a valuable coup and moral with the appearance of the official with Socrates from one side, and the appearance of monotheistic religions Hebrew and Christianity from another side. With that, the values of weakness and degradation become the ruler. The function of metaphysics is the promotion and publicity to this low values. But the Genealogy will discover the counterfeit of these allegations, and it will prove that values are proportional and submissive. "the perspective"

Keywords: Genealogy, Metaphysics, Values, Moral Turn, Monotheistic Religions.

الملخص

سنعمل في هذا المقال على التعريف بالجينيةالوجيا عند الفيلسوف الألماني نيتشه، من حيث هي أداة للكشف عن قيمة الأصل وأصل القيم في الوقت ذاته. إذ تتجلى قيمة هذا المنهج، إن جاز لنا هذا الاصطلاح، في كشفه عن نسبة القيم التي طالما ظلت منفصلة من النقد، بدعوى أنها قيم موضوعية متعالية، وكونية، ومطلقة، غير أن البحث الجينيةالوجي سيثبت أنها مجرد قيم نسبية ترتبط بالفئة التي تمتلك سلطة القرار، أي أنها ترتبط بالأسياذ فقط؛ بيد أن الامر لم يستمر على حاله بل حدث انقلابا قيميا وأخلاقيا مع ظهور الفلسفة الرسمية مع سقراط من جهة، ومع ظهور الأديان التوحيدية: اليهودية والمسيحية، من جهة ثانية. وبذلك أصبحت قيم الضعف والانحطاط هي المسيطرة، وأضحت وظيفة الميتافيزيقا هي الترويج والدعاية لهذه القيم المنحطة مع الزعم بأنها قيما في ذاتها. لكن الجينيةالوجيا ستكشف عن زيف هذا الادعاء، وستبرهن على أن القيم نسبية وخاضعة "للمنظور".

الكلمات المفتاحية: الجينيةالوجيا، الميتافيزيقا، القيم، المنعطف الأخلاقي، الأديان التوحيدية.

أ. السنون عبد الفتاح: difference1987@gmail.com *

مقدمة:

لا شك أن المحور الأساسي الذي تمحورت حوله فلسفة نيتشه هو محور قلب القيم والتي انبنت أساسا على مثل الأخلاق والدين والميتافيزيقيا. وقد وسمت الفلسفة بميسمها الخاص إذ أوجدت معاييرًا جديدة تختلف عن المعايير التي كان سائدة في سابق العهود، والتي تمثلت بحسب المنظور النيتشوي في معايير الحياة. مما يعني أن الفلسفة لم تعد وفية لبعدها الحيوي، بل تخلت عنه منذ أن ظهرت الفلسفة في نسختها السقراطية من جهة، ثم ظهور الأديان السماوية التوحيدية في نسختها اليهودية المسيحية من جهة ثانية. وبينما أن الفلسفة السابقة على سقراط، أي الفلسفة الطبيعية، كانت فلسفة مادية مرتبطة بالأرض وبالفيزيس (PHYSIS)، فإنها انطلقا من عهد سقراط أصبحت ذات طابع أخلاقي روحي جذلي وعقلي مثالي، لذلك دخلت في صراع مرير مع السوفسطائيين، لأن هؤلاء ظلوا أوفياء للأرض وقيمها المادية المتمثلة في فضائل الحرب والقوة والحب والرقص والحياة. لكن الفلسفة السقراطية أو "الرسمية"، كما يحلو للبعض تسميتها، قامت على أسس أخلاقية وميتافيزيقية، إذ صنفت الأفعال الإنسانية إلى سلم ثنائي القيمة: الخير والشر، العدل والظلم، الحياة والموت. غير أن عيب هذا التصنيف الميتافيزيقي هو أنه يقوم دائما وأبدا على الانحياز لأحد طرفي هذه الثنائية، معتبرا أن الخير والشر هما كذلك في ذاتهما، غير أن الواقع يشهد على أنهما يختلفان من شخص أو فئة أو مجتمع إلى آخر، وهذا الأمر ينطبق على كافة القيم الأخرى، فهما ليسا متناقضين بإطلاق بل أن كلا منهما قد ينتج عن الآخر أو قد يساعد في ولادته. ومن هنا يتضح أن الفلسفة منذ عهد سقراط تنكّرت لخاصيتها المادية الأرضية الحيوية لفائدة المثل الماورائية، الأمر الذي دفع نيتشه إلى الدعوة إلى إعادة النظر في تاريخ الفلسفة بكامله، بل وفي تاريخ الحضارة الغربية، من عهد اليونان إلى العصر الحديث

الغربي، وذلك عن طريق إعادة النظر في مسألة القيم وأسسها وأصولها. وقد ساهمت المقاربة الجنينالوجية في الكشف عن أن تاريخ القيم لم يكن يوما تاريخا واحدا موحدًا ولا متجانسًا، بل هو مفكك ومتصدّع من الداخل على الرغم من المحاولات اليائسة للميتافيزيقا من أجل تلميعه وتجميله. ومن بين الأعراض الشاهدة على هذا التصدع هو الانقلاب الذي حصل على الصعيد الأخلاقي، أي ثورة قيم العبيد السود الضعفاء على قيم الأسياد الأقوياء الشقر، وقد انطلقت هذه الثورة مع ظهور اليهودية بشكل خاص، واستكملت مع المسيحية والفلسفة الحديثة.

هكذا فإن نيتشه يؤكد بأن القيم السابقة على الأديان التوحيدية كان أساسها هو الحياة والفعل والقدرة والإبداع، لكنها أصبحت مع ظهور الديانتين: اليهودية والمسيحية، ترتبط بالحق والضعيفة ورد الفعل والانتقام؛ إذ لم يعد الاقتدار الحيوي هو مصدر الفعل وإنما أصبح الحق نفسه مولّدًا للفعل، مما يعني أن القيم صارت ذات طابع ارتكاسي. وعلى ذلك تكون اليهودية هي أول من ساهم في قلب سلم القيم، إذ هي من ساهم في وصم لفظ "الحياة" وقيم "الدنيا"، فبعد أن كانت القيم ترتبط بالقوة والحرب والعنف وغيرها من القيم التي تصب نحو الزيادة في طاقة الحياة، أصبحت هذه الأخيرة نفسها مُدانة، إذ أن القيمة، كل القيمة، أصبحت مرتبطة بالعالم الآخر، عالم الماوراء. ومن ثمة يتبين أن التصور الديني: اليهودي والمسيحي، قد أحدث قطيعة في تاريخ القيم، إذ أوجد معايير جديدة للتقييم، إذ أصبح الفقر والضعف واللين والتواضع والرحمة والترفع... هم أساس التقييم الأخلاقي. مما يعني أن الأديان التوحيدية ساهمت في "إفقار الحياة" وفي انحطاط العرق الآري، بل وفي منح فرصة للوهنين والمنحطين والمرضى. وبذلك تكون قد ساهمت، بشكل ممنهج، في القضاء على التميز والإبداع،

وفتحت الباب على مصراعيه أمام حيوان القطيع، أمام إنسان مدجن ومخصي، فأساءت بالتالي فهم الطبيعة البشرية التي تقوم على العنف والقوة والوحشية. إن وظيفة الأديان والفلسفة إذن، بل والثقافة بشكل عام، هي تأليف "الحيوان البشري" وتليين طباعه. ولذلك فإن نيتشه لا ينظر إلى الدين والفلسفة والأخلاق، بل والعلم أيضا، إلا بوصفها حلقات مترابطة وأنساق متداخلة للثقافة. إذ أنها جميعها تلتقي في تبني قيم زهدية تتعارض مع قيم الحياة، فالحياة حسب الفيلسوف هي قيمة القيم، إنها معيار كل القيم الأخرى، لذلك لا ينبغي نفيها لا باسم المثل العقلية الفلسفية المتعالية ولا باسم المثل الدينية الغيبية أو الأخلاقية. وحتى يتأتى للفيلسوف الدفاع على هذه الأطروحة، كان لزاما عليه، ليس فقط التمكن من تاريخ الحضارة الغربية، وإنما أيضا تجهيز العدة المنهجية المناسبة والفعالة من أجل زحزحة القناعات الراسخة وتفكيك البديهيات المستبدة بآراء العامة من جهة، و"شعب الفلاسفة" من جهة أخرى، وهو ما تمثل أساسا في اصطناع "الجينيالوجيا".

وإذا ما كان سؤال الخير والشر هو أساس مبحث الأخلاق الذي شكل العمود الفقري لفلسفة نيتشه، فإن صاحبنا سيعمل على تفكيك هذا الموضوع الذي صاحبه منذ صباه، وذلك عبر إبداع منهج فلسفي جديد هو: الجينيالوجيا، والذي سيمكنه من إعادة النظر في مجمل تاريخ الميتافيزيقا الغربية، بل وفي مجمل تاريخ الحضارة الغربية التي طالما قامت على تقديس العقل وتهميش ما عداه.

وعليه، فإننا سنحاول في هذا المقال معالجة التساؤلات التالية: ما هي الجينيالوجيا؟ وهل تستمد القيم، قيمتها من ذاتها أم من الخارج؟ وهل القيم تمتلك في ذاتها قيمة موضوعية مطلقة ومتعالية أم أن قيمتها نسبية أرضية تختلف باختلاف

المنظورات والشروط التي أنتجتها؟ وكيف عملت الجينياولوجيا على مجازة الأساس الميتافيزيقي للقيم؟
فرضية البحث:

يكن منطلقنا في هذا البحث من افتراض أن الجينياولوجيا أداة فعالة في الكشف عن نسبية القيم، وبيان أنها لا تتضمن أية قيمة في ذاتها وإنما تستمدّها من أولئك الذين خلقوها ويستعملونها لفائدتهم، لكن الناس بفعل العادة والاستعمال أضحووا يعتقدون أنها كذلك دائما وأبدا.

الهدف من البحث:

بيان أن جميع القيم تستمد قيمتها من خارج ذاتها، وبالتالي لا يمكن ادعاء وجود قيم موضوعية مقدسة ومتعالية وأخرى أرضية مدنسة ومنحطة، فقيمتي الخير والشر مثلا ليسا إلا "أحكام قيمة"، إذ هما خاضعان إلى مسألة "المنظور".

1. الجينياولوجيا ونسبية القيم:

الجينياولوجيا هي المبحث الذي يُعنى بالمبحث في "قيمة الأصل وأصل القيم في الوقت ذاته، وهي تتعارض مع الطابع المطلق للقيم كما مع طابعها السببي أو النفعي. إذ يعرفها دولوز قائلا: «النسابة (الجينياولوجيا) تعني العنصر التفاضلي للقيم الذي تنبع منه قيمتها بالذات.» (دولوز، 1993أ)، ص: 7)، أي المبحث الذي يبحث فيما يجعل من قيمة شيء ما تتميز عن قيمة شيء آخر وتتمايز عنه. إنها تبحث فيما يجعل قيمة معينة تحتل الرفعة والسمو وما يجعل قيمة أخرى تنحط وتندثر إلى الحضيض، أي هي بحث في النشأة والأصل، فهي تعنى بالمبحث في قيمة الأصل والميلاد، ولكن أيضا في الاختلاف والمسافة داخل الأصل، أي في العنصر التفاضلي للقيم. (دولوز، 1993أ)، ص: 6) ومن هنا فهي تكشف عن تعددية الأصل وتشدّده، فالأصل ليس

موحدا ولا منسجما أو متناغما بقدر ما أنه متعدد ومختلف و"البحث عن المصدر لا يؤسس: إنه يربك ما ندركه ثابتا ويجزئ ما نراه موحدا، ويجعلنا ندرك المطابق لذاته غير متجانس." (فوكو، 1988، ص: 53)

وعليه، فإن الجينيالوجيا لا تعتقد في الهوية ولا في الوحدة ولا في مبدأ أول أو سبب كافي ولا في الجوهر. (نيتشه، 2010 (ب)، ص: 37)، فكل وحدة أو هوية تحوي في ذاتها شروخا وتشققات طالما حاولت الميتافيزيقا كبتها وإخفائها عنّا، غير أن "التاريخ الجينيالوجي -يقول فوكو- يعلمنا الاستخفاف بالحفاوة التي سيحظى بها الأصل. الأصل الأسمى عبارة عن فائض في النمو الميتافيزيقي قائم على تصور مؤداه أن الأشياء في بدئها تتوفر على ما هو نفيس جدا وجوهري جدا، أي أننا نميل إلى الاعتقاد بأن الأشياء التي كانت على درجة من الكمال، وخرجت من يد خالقها متوهجة أو غارقة بالأحرى في صبيحة أولى ضياؤها من غير ظلال، يفترض في الأصل دوما أنه موجود قبل السقطة والتدهور، قبل الجسد، قبل العالم والزمن." (فوكو، 1988، ص: 51)

تجدر الإشارة إلى أن الجينيالوجيا منهج فلسفي يقوم على التوليف بين فنين أساسيين، وهما: الفيلولوجيا والتاريخ، كما يتبين من قوله: «إن تربية تاريخية وفيلولوجية، متى أضيف إليها حسن فطري ذواق في المسائل النفسية بعامة، قد حولت مُشكّلاتي سريعا إلى هذا المشكل الآخر: تحت أية ظروف اخترع الإنسان أحكام القيمة هذه من خير وشر؟ وأية قيمة لها بذاتها؟ هل أعاققت النموّ الإنساني إلى حدّ الآن أم يسّرتة؟» (نيتشه، 2010 (أ)، ص: 34) بهذا يكون نيتشه قد أكد على أهمية فقه اللغة والتاريخ، وهما أساسا الجينيالوجيا، اللذان ساعدها في مقارنة طبيعة الأسس التي تقوم عليها الأخلاق والقيم، للكشف عن الظروف التي ساهمت في ظهور أحكام القيمة:

الخير والشر. مما يعني أنهما ليسا كذلك في ذاتهما ولا هما كذلك بالنسبة لجميع الناس، بل هما مجرد أحكام قيمة تتعلق بفئة من الناس دون أخرى.

إن الهدف الأسمى للجينياالوجيا، هو تفكيك مقولة الأصل، على الصعيد الفلسفي أو الأخلاقي، التي كان ينظر إليها كشيء قائم الذات، غير أنها لا تستمد قيمتها من ذاتها وإنما من أولئك الذين أضفوا عليها هذه القيمة، أولئك الميتافيزيقيين الذين نظروا إليها كشيء ثابت ومطلق. وهذا ما يبينه الفيلسوف من خلال قيمة الطيّب أو الخيّر التي لا تُستمد، في نظره، من الأفعال التي لا أنانية فيها أو التي لا تتضمن أية منفعة ذاتية، بل العكس هو الصحيح لأن كل فعل طيّب أو خيّر هو كذلك بالنسبة إلى أولئك الذين يستفيدون من خيّريته وطيّبه. (Nietzsche, 1995, p: 16, 17)

الميتافيزيقيون، بل إما أن تكون قيمة في خدمة وجود الجماعة ووجدتها (الرّاع) أو في خدمة النبلاء الأحرار المتميزين، ولذلك يؤكد: « طالما كانت النفعية السائدة في الأحكام القيمية الأخلاقية نفعيّة القطيع دون سواها، وطالما كان النظر موجّها إلى الحفاظ على الجماعة وحسب، والبحث عن اللاأخلاقية منحصرًا على بقاء الجماعة بالذات. » (نيتشه، 2003، ص: 146). ولما كانت جماعة الدهماء والرّاع تهدف إلى الحفاظ على وجودها فإنها جعلت من "التراحم والإنصاف والرفق وتبادل العون" أسمى الفضائل وأساس "الأخلاقية". غير أن البحث الجينياالوجي يبين أن هذه القيم لم تكن كذلك في العصور السابقة، ولذلك يردف قائلا: « وعلى سبيل المثال، لا يصنّف الفعل الرّحوم في أوج العصر الروماني لا خيّرًا ولا شرّيرًا، ولا أخلاقيًا. » (نيتشه، 2003، ص: 146) القيم إذن، ليست كذلك في ذاتها، فلا هي خيّرٌ بذاتها ولا هي شرّيرة بذاتها، لذلك كانت غاية نيتشه هي الذهاب إلى ما وراء الخير والشر، أي إلى ما وراء

التصنيفات القيمة التي أضفت سكونا مطلقا عليها، في حين أن الحركة والسيلان هما ماهيتهما الحميمة. ليست القيم، في نظر الجينياالوجي، إلا "أحكام قيمة". إنها من نَحْت النبلاء والمتميزين الذين لهم سلطة تسمية الأشياء أما أخلاق الفضيلة التي أضحت نموذج الأخلاق في عهد انحطاط الإنسان ووهنه فهي ناتجة عن "رد الفعل"، إنها أخلاق الحملان الوديدة الناتجة عن فعل ارتكاسي؛ بيد أن النبلاء هم أصحاب "الفعل"، أخلاقهم هي أخلاق النسور الكاسرة، التي تفعل ما يليق بها وتجد سعادتها في أذية الحملان التي لا تملك إلا لوم النسور واتهمها بعدم أخلاقيتها. إن النبلاء هم خالقي القيم سواء "أكان النبلاء روماً أم عرباً، جرمانا أم يابانيين، أكانوا أبطالاً هومييريين أم فيكينغ إسكندنافيين- في هكذا حاجة هم كانوا سواء. الأعراق النبيلة، تلك التي تركت مفهوم "البربري" على جميع آثارها أينما ذهب". (نيتشه، 2010 (أ)، ص: 63، 64)

الانسان النبيل إذن، كائن بربري متوحش وظيفته خلق وإبداع القيم، الانسان النبيل المتوحش هو الذي يمتلك اقتدارا حيويا كافيا لصناعة قيمه بذاته، غير أن ظهور "الحيوان - المدجن والمتحضّر" هو ما سيؤدي إلى تغيير معيار "الاقتدار الحيوي"، كمعيار لتقييم الخير والشر. فبينما كان امتلاك الأول لهذه القدرة هو بمثابة إعلان عن ضرورة الفعل، وفي فعله هذا تنمو السعادة لتصل إلى أسمى مراحلها؛ فإن الحيوان المدجن، هو على العكس من ذلك، هو الذي سيظهر فيما بعد، مع تطور الثقافة الميتافيزيقية، وهو الذي استطاع بفضل هذه الثقافة القائمة على غرائز ردّ الفعل والحقد من إذلال وتحقير الأعراق الأرستقراطية وقيّمها. (Nitzsche, 1995, p :34) وعلى ذلك فإن الحضارة والثقافة، حسب الفيلسوف، لم يساهما في تقدّم الجنس البشري كما يعتقد عدد من الميتافيزيقيين، بل هما ساهما في انحطاطه وتقهقره، لأنهما ساهما في إنتاج حيوان

مدجن، متمدّن، رخو، وعليل يدعو إلى الحب والسلام والعفة والشفقة والتواضع والتعايش. (نيتشه، 2003، ص: 143، 144)

إن السيد النبيل إذن، هو من يحتكر الحق في تقييم القيم وتنصيبها ونفخ الروح فيها، فهي ليست معطى جاهزا ولا شيئا كامنا في ذاته ولا محايدا. غير أن الفلاسفة يعانون من "نقص [في] الحس التاريخي"، مما جعلهم يكرهون فكرة الصيرورة بل وأصبحوا يعتقدون أنهم يضيفون "قيمة الشرف على الأشياء عندما يجردونها من طابعها التاريخي، عندما يحولونها إلى مومياء. كل ما ظل الفلاسفة يعالجونه منذ آلاف السنين لم يكن سوى مومياء أفكار، وليس هناك من شيء حقيقي حيّ قد خرج من بين أيديهم." (نيتشه، 2010(ب)، ص: 35) ذلك أنه "لفرط ما يبحث المرء عن البدايات يتحول إلى سرطان. المؤرخ ينظر القهقري؛ ثم ينتهي بأن يؤمن القهقري." (نيتشه، 2010(أ)، ص: 16) ومنه فإنه من الأجدر للفيلسوف أن يؤمن بالتراجع والتقهقر الذي لا يتوقف عند نقطة مزعومة، فليس هناك إلا السيلاان والصيرورة والتدفق. وعليه، فإن نيتشه يعطي قيمة كبيرة "للحاسة التاريخية" التي تمنح الفيلسوف "القدرة على الكشف بسرعة عن تراتبية التقييمات التي عاش بموجبها قوم ما ومجتمع ما وإنسان ما، أو "فطرة التنبؤ" بالصِلاَة بين هذه التقييمات وبالعلاقة بين سلطان القيم وسلطان القوى الفاعلة." (نيتشه، 2003، ص: 187) ومن هنا يتبين مدى القيمة التي يعطيها الجينيالوجي للتاريخ، بل هي أحد مكوناته الأساسية كما مرّ معنا.

هكذا نخلص اعتمادا على الجينيالوجيا أن القيم ليست ربانية المصدر ولا عقلانية المنشأ بل هي خاضعة لإرادة الاقتدار، فهي ليست محايدة ولا كونية ولا متعالية بل هي هرمية وموضوع صراع القوى الفاعلة، فالقوة الأقدر على الفعل هي التي يعود لها شرف

اصطناعها وخلقها. ولذلك لا ينبغي تركها خارج دائرة النقد بمبرر أنها محايدة أو موضوعية أو مقدسة لأن كل هذه الدعاوي واهية من المنظور الجينيالوجي، ذلك ان كل القيم أرضية إنسانية وتعكس سلطة المهيمن؛ إذ يقول الفيلسوف: «ما هو الخير؟ إنه كل ما يريّ الشعور بالقوة إرادة القوة، والقدرة ذاتها داخل الإنسان. ما هو الشر؟ إنه كل ما يتأتى عن الضعف. ما هي السعادة؟ الشعور بأن القوة تتنامى، وأن المقاومة تُتجاوز. ليس أنها الرضى، بل قوة أزود [أعتقد تزداد]، ليس السلام، ولا بأية طريقة، لكنها الحرب؛ لا الفضيلة بل الكفاءة (فضيلة بالمعنى الذي لعصر النهضة، فضيلة بلا أخلاق -سطحية زائفة)». (نيتشه، 2015، ص:25) هكذا يكون الفيلسوف قد عمل على نقض القيم الفلسفية والدينية، أي القيم الميتافيزيقية التي تقيم نفسها على أسس أخروية غيبية من جهة، وعقلية متعالية قبلية من جهة أخرى، دون أن تهتم بما هو دنيوي أرضي. ومن ثمة فإن تكون فلسفة تحاول التبشير بتصور قيمي جديد، بفلسفة للمستقبل. ألم يقل نيتشه عن كتابه "عدو المسيح"، أنه "ينتمي إلى القليلين الذين لعل أحدا منهم لم يولد إلى الحياة إلى الآن" وأن "الغد وحده هو الذي يخصني، وبعض المولودين فيما بعد." (نيتشه، 2015، ص:21) لقد بشّر إذن بفلسفة جديدة لا تكثرث للثبات والسكون بل هي تهتم بالصيرورة والتحول. (نيتشه، 2015، ص:37) كما لا تبتغي البحث عن الأصل الأول المقدس دينيا والقبلي فلسفيا ولا عن النظم والأنساق وإنما هي تنزع إلى التشذّر والاختلاف والتعدد، ولذلك فهو يقول: «لي ريبة تجاه كل النظاميين وأحرص على الابتعاد عن طريقهم. إرادة النظام نقص في الاستقامة.» (نيتشه، 2010(ب)، ص:16)

عموما، تعد الجينيالوجيا بمثابة المحرك الأساسي لأبحاث نيتشه الفكرية بل هي الخيط الناظم لأبحاثه المتشظية، فعلى الرغم مما عرف به الرجل من التشتت في الأفكار

وعدم التزامه بالكتابة النسقية المألوفة من خلال اعتماده على الشذرة، أو ما يسميه مُجَدّ الأندلسي بـ"السياسة الجديدة في كتابة الفلسفة." (أندلسي، 2005، ص: 57) إلا أنه من خلف هذا التشذّر يؤسس فلسفة حقيقية جديدة قائمة على التعدد والاختلاف والتأويل، فلسفة تذهب إلى ما وراء التصنيفات الميتافيزيقية للقيم، ومنه إلى ما وراء الخير والشر.

2. من المنعطف الأخلاقي إلى ما وراء ميتافيزيقا الخير والشر

إذا ما كان التشخيص الجينياالوجي للقيم قد أدى إلى الكشف عن برائين الدّم والقوة والنبالة والسلطة فيها، مما يعني أنه ليست هناك قيم في ذاتها، إذ أن القيم ليست في ذاتها لا خيرة ولا شريرة، بل أن خالقها هو الذي يضيف عليها هذه الصفة أو تلك، بحسب المصلحة أو المنفعة التي يقتضيها الظرف والسياق. ألم يقل نيتشه أن الحقائق أوهام نسي الناس أنها أوهام لأنها أوهام نافعة في معركة الصراع من أجل البقاء. (Nietzsche, 1969, p: 119) مما يعني أن كل التصنيفات القيمية هي تصنيفات قائمة على أسس غيبية وميتافيزيقية وليس على أسس واقعية أرضية نفعية.

إن ما ميز موقف الفيلسوف هو أنه موقف متفرد على امتداد تاريخ الميتافيزيقا الغربية، من اليونان إلى هيجل، وذلك لأن كل الفلاسفة أبقوا القيم خارج دائرة النقد بما في ذلك مواطنه: إيمانويل كانط، الذي طالما نادى بضرورة إعمال النقد، بل وجعل من ملكة النقد محكمة للفصل بين ما يدخل في دائرة العقل وما هو خارج عنها، أي بين ما يمكن البحث فيه وما هو خارج عن متناوله. (كانط، ص: 26، 27). غير أنه ترك الأخلاق ذاتها خارج النقد، حيث عمل على التأسيس لأخلاق جديدة، أي لأخلاق الواجب التي ادّعى أنه يجب أن تقام على قوانين عقيلة كونية تنبسط على جميع الكائنات العاقلة في كل الشروط الممكنة بشكل ضروري. (كانط، 2002،

ص: 68، 69) فكان مجرد وريث للقيم المسيحية- اليهودية التي أضحت تحجب على الإنسان رؤية الأشياء، وتحرمه من استخدام ملكاته النقدية بعيدا عن التوجيه والتغليب. الأمر الذي جعلنا نترك الخير والشر دون أن نفكر فيهما حتى الآن، فأصبحا بمثابة الشرطة التي تمنعنا من التفكير الحر، وذلك لـ "أنه لا يُسمح لنا في حضرة الأخلاق، كما في حضرة أي سلطة بأن نفكر، ناهيك عن الكلام: ثمة يجب علينا أن نطيع ! منذ وجد هذا العالم لم تقبل أية سلطة أن تكون موضع انتقاد، الذهاب إلى حد انتقاد الأخلاق والأخلاق باعتبارها قضية." (نيتشه، 2013، ص: 8) مما يعني أن الأخلاق أصبحت تقوم بدور الرقابة ليس فقط على أفعال الإنسان وإنما أيضا على أفكاره، الشيء الذي دفعهم إلى ترك الأخلاق خارج دائرة النقد وكأنها تعلق على التفكير بل وتحدّد له ما ينبغي التفكير فيه وما ينبغي التفاوض عنه. ولتتضح الفكرة بشكل أجلي يضيف الفيلسوف في نفس الموضوع: «إن الأخلاق لا تستخدم فقط مختلف أشكال التخويف لتبقي الانتقادات ووسائل التعذيب بعيدة: بل يقوم أمنها في فنّ إغراء تتقنه، إنها تتقن "التحميس" أحيانا تنجح من خلال نظرة واحدة في تجميد إرادة النقد، أو جذبها لتقف في صفها. بل إنها تنجح في بعض الحالات في جعلها (إرادة النقد) تعارض نفسها [...] فما سبب فشل كل ما بناه الفلاسفة منذ أفلاطون؟ [...] كان من المفروض أن يكون الجواب الحقيقي، على العكس، هو بأن الفلاسفة كلهم قد شيدوا صروحهم تحت إغراء الأخلاق، كانط والفلاسفة الآخرين، وبأنهم يتظاهرون بالاهتمام باليقين، بـ "الحقيقة"، بينما اهتمامهم الحقيقي كان منصبا على صروح أخلاقية شامخة.» (نيتشه، 2013، ص: 8، 9)

هكذا تكشف المقاربة الجينيالوجية للأخلاق أن هناك انقلابا قيميا حدث على مستوى الفلسفة، وقد حصل مع سقراط أو بدقة أكثر مع تلميذه أفلاطون، فمع هؤلاء

أضحت الأخلاق من صميم فعل التفلسف، إذ استطاعت الأخلاق منذ أن تأسست "الفلسفة الرسمية" أن تحتل مركز الأنساق الفلسفية بل وأن تنأى بنفسها عن النقد، إلى الحد الذي أصبحت فيه تتمتع بسلطة جبارة تجعلها قادرة على "تجميد إرادة النقد"، الأمر الذي جعلها على مر العصور تحظى بالتقديس والتشريف، حيث تحول الفلاسفة إلى مجرد محامين وظيفتهم الدفاع عن الأخلاق بدل نقدها وتشريحها. وبهذا يكون صراع نيتشه "صراعا مزدوجا"، كما يصفه جيل دولوز، لأنه صراع "ضد أولئك الذين ييقون القيم خارج النقد، مكتفين بمجرد القيم الموجودة أو بنقد الأشياء باسم قيم سائدة، من أمثال "عمّال الفلسفة"، كانط وشوبنهاور وهيغل. (نيتشه، 2003، ص: 172) لكن كذلك ضد من ينتقدون القيم أو يحترمونها، يجعلها تشتق من وقائع بسيطة، من وقائع موضوعية مزعومة وهم المنفعيون، العلماء". وفي الحالتين تَسَبَّح الفلسفة في العنصر الحيايدي لما له قيمة في ذاته أو له قيمة بالنسبة للجميع. (دولوز ، 1993(أ)، ص: 6) غير أن القيم في نظر الجينيالوجي ليست موضوعية كما يدعي "عمّال الفلسفة" ولا هي ذات مصدر ربّاني كما يعتقد رجال الدين، بل هي نسبية أسهمت أربعة عوامل في إقامتها، وهي: "المنفعة" و"النسيان" و"العادة" و"الخطأ". (Nietzsche, 1995, p: 17)

أما على المستوى الأخلاقي - الديني فإن كان الشعب اليهودي هو الشعب الأول الذي قام بقلب القيم، وذلك "بإعادة تقييم القيم على الطريقة اليهودية"، فإنه بهذا الفعل يكونوا اليهود قد "حققوا تلك المعجزة في قلب القيم التي أضفت على الحياة الدنيوية لبضعة آلاف من السنين فتنة جديدة وخطرة." (نيتشه، 2003، ص: 140) ، وتمثلت هذه الفتنة في كون قيم الضعف والوهن حلت محل قيم القوة والشجاعة؛ ومن ثم أصبح لفظ "فقير" مرادف "لمقدس وصديق". وهكذا فإن أهمية الشعب اليهودي

تكمّن في أنه "به تبدأ انتفاضة العبيد في الأخلاق." (نيتشه، 2003، ص: 140) ولذلك يصفه نيتشه بأنه "الشعب الكهنوتي بامتياز." (Nietzsche, 1995, p: 25) مما يعني أنهم عملوا على إضفاء معنى جديد على العالم، فلم تعد الأخلاق مرتبطة بالقدرة والقوة والشجاعة كما كان عليه الحال قبل سقراط وقبل الأديان التوحيدية، بل أصبحت تابعة لقيم الحب والرحمة والتسامح والتواضع، أي لقيم الضعيفة والضعف والانحطاط.

هكذا فعلى الرغم من محاولة البعض إضفاء طابع القدسية على القيم، والادعاء بأنها كونية، وبالتالي القول بأنها تبقى منفصلة من كل محاولة للنقد والتفكيك؛ إلا أن الفيلسوف يرفض هذا الطرح ويخضها للتشريح الجنينالوجي، الذي يبين أن هناك تعددا في الأخلاق، ذلك أن الأخلاق قبل سقراط والديانتين التوحيديتين ليست هي عينها بعد سقراط. إذ أنها كانت في السابق تقوم على القوة والشجاعة وليس على مثل ميتافيزيقية عليا. لقد كانت أخلاقا أشدّ التصاق بالأرض، لكنها بعد ذلك أصبحت ميتافيزيقية متعالية أخرى. ولذلك فهو يرى أن أخلاق ما بعد سقراط مريضة ومنحطة، لأنها عرّضت من أعراض انحطاط الحضارة البشرية، هذه الحضارة التي تميزت بكبت القوى الخلافة في الإنسان عن طريق إعدام الفارق والتميز والإبداع والقدرة، مما سمح بظهور إنسان وهن، مهجّن، مختلط الأعراق، ينادي بالمساواة والعدالة والتسامح والعفة، أي عرق أخلاقي النزعة.

ليست القيم إذن كذلك في ذاتها، بل من يستعملها هو من يضيف عليها هذه القيمة أو تلك. لذلك فهو يرى أن السادة والأقوياء هم مصدر التشريع الأخلاقي، إذ يقول: «إنه (السيد) الإنسان الحر، صاحب الإرادة الجموحة، الذي يجد في هذا الامتلاك (للقوة) معيار القيمة لديه، فيتخذ نفسه مرجعا للحكم على



الآخرين» (Nietzsche, 1995, p: 51) إنه صاحب العرق الخالص، ولذلك هو وحده من يتمتع بسيادته على ذاته وعلى العالم والقدر، لأنه حر وشجاع وقوي. فهو المشرع الأول والأخير وإليه يرجع القرار. السيد إذن، وليس العبد، هو من يملك القدرة على تقييم الأمور وتسمية الأشياء وفق مسمياته وقاموسه الخاص. بل ولا يقتصر الأمر على حق احتكار السيد الحق في تسمية الأشياء، وإنما يمكن اعتبار أصل اللغة كفعل سلطة هؤلاء الذين يهيمنون. إن هؤلاء قالوا هذا كذا وكذا، وإن ألصقوا بموضوع ما لفظا معينا تملكوه. (بنعبد العالي، 2000، ص: 147، 148) ومن ثمة تكون القيم خاضعة لسلطة صاحب السلطة وليست ذات منبع إلهي أو ناتجة عن واقعة أولى. هكذا فإن فلسفة نيتشه تكشف عن حدوث منعطف أساسي في تاريخ الميتافيزيقيا الغربية، من جهة أولى مع سقراط ومن جهة ثانية مع الديانتين اليهودية-المسيحية. لذلك فهو يتبني استعادة قيم النبلاء الأقوياء التي سادت اليونان قبل سقراط القبيح وقبل هيمنة قيم الأديان السماوية التوحيدية. ومن ثمة، يكون نيتشه قد جعل من نقد القيم محور فلسفته، بل هي محور الفلسفة من سقراط إلى هيجل، وبذلك فقد حوّل مشكلة الوجود بأسره الى مجرد مشكلة قيمة. (عطية، 2007، ص: 133) وبينما أن الرجل لم يشأ أن يسير في الدرب الذي اختطّه الفلاسفة منذ سقراط، فيرتدي مثلهم قناع الكاهن الشرقي ويعمل باسم العقل والنقد بتنصيب جملة من المفاهيم والقيم التي أصبح يُنظر إليها وكأنها صادقة وقائمة بذاتها، إلى الدرجة التي تحولت فيها إلى أصنام تُقدّس وتُعبَد من طرف الفلاسفة، مما اضطرّ "طبيب الحضارة" إلى محاولة تشخيص الأعطاب التي تعاني منها الميتافيزيقيا الغربية، وهذا ما أدى إلى الكشف عن المنعطف القيمي الذي أجهز على قيم الحياة ومشتقاتها لفائدة قيم الموت والانحطاط.



يتميز إذن عمل نيتشه الأساسي في مساءلة المصادر والأسس التي تقوم عليها الأخلاق والقيم عامة، أي عن الأسس التي سمحت لبعض القيم أن تحتل قيمة الهرم القيمي في حين أن قيمًا أخرى ظلت في الدّيل. الأمر الذي سيدفعه إلى التسلح بعدة معرفية ومنهجية لم يألّفها السابقون عليه، أو على الأقل لم يألّفوا توظيفها بذات الطريقة، من أجل نقد وتقييم الهرم القيمي والأخلاقي وفق منظور جينياولوجي للكشف عن مكبوتة وتعرية مسكوتة، ولذلك فهو يعلن: «أنا السيكلولوجي القديم والحاوي العريق الذي يجعل الأشياء الأكثر حرصا على التكتّم مرغمة على النطق بصوت مسموع أمامه.» (نيتشه، 2010 (ب)، ص: 8) أي أنه يعمل على استنطاقها من أجل إبراز ما هو كامن فيها، معتمدا أسلوب القرع بالمطرقة كأسلوب جديدا للتفلسف، بهدف تخليص القيم من صَمَمِيتها التي اكتستها في عصر النزوع الأخلاقي، هذا العصر الذي أصبحت فيه الـ "أوثان أكثر من الأشياء الواقعية في العالم." (نيتشه، 2010 (ب)، ص: 8)

إن النقد الجينياولوجي لطبيعة الأسس التي قامت عليها القيم ونوع التحولات التي عرفتتها، يختلف عن النقد العقلي الكانطي لها. فبينما أن هذا الأخير أبقى على العقل كمحكمة عليا للتقييم أو بالأحرى للحكم، فإن النقد الجينياولوجي لم يبق على أية قيمة خارج النقد، بما فيه العقل نفسه الذي اعتبره صنمًا يجب تحطيمه وهدمه. (أندلسي، 2006، ص: 38) وبذلك يكون قد جرّ كل القيم التي ظلت مُهرّبة خارج دائرة النقد إلى داخلها، ولم يسلم من نقده "عمّال الفلسفة" أيضا، أي أولئك الذين تعاملوا مع القيم بسداجة وعملوا على الدفاع عنها وحولوا مهمة المتفلسف إلى وظيفة محاماة. (نيتشه، 2003، ص: 52) فجعلوا من الفلسفة أداة للحكم والتقييم الموضوعي وتناسوا أنها مجرد تمظهر فيزيولوجي لعرق معين. إذ لا يمكن للقيم في نظر "طبيب

الحضارة" أن تكون موضوعية ولا واحدة لدى الجميع ما دام أن فيزيولوجيا كل عرق تختلف عن فيزيولوجيا الأعراق الأخرى، وذلك لأن "ما يصلح غذاء ورحيقا للنوع الأعلى من البشر، يجب أن يكون بمثابة سمّ لنوع مختلف جدا وأَوْضَع. وربما صارت فضائل الرجل العامي إن تبنّاها الفيلسوف، رذائل وعيوباً (...). وثمة كتب لها، بالنسبة إلى النفس والصحة، قيمة مختلفة تتوقف على ما إذا استعملتها النفس الوضيعة، وقوة الحياة المتدنية، أم النفس العليا والقوة الأكثر جبروتا." (نيتشه، 2003، ص: 60)

ليست الفلسفة إذن، محكمة لإنصاف العبيد والمستضعفين والمنحطّين، والفلاسفة ليسوا قضاة، بل هم "آمرون ومشرّعون"، "يعيّنون بدءا وجهة الإنسان وغايته، ويتصرفون من أجل ذلك، في العمل التمهيدي لكل شُعيلة الفلسفة وكل قاهري الماضي، إنهم يمدون يدهم الخلاقة إلى المستقبل." (نيتشه، 2003، ص: 176، 177) وعليه، فإن أحكام الفلسفة ليست أحكاما موضوعية كما يدعي الفلاسفة بل هي "اعتراف ذاتي لصاحبها، ونوع من المذكرات من غير أن يقصد أو يلاحظ، وأن النوايا الأخلاقية (أو اللاأخلاقية) شكلت في كل فلسفة بذرة الحياة الأصلية التي انبثق عنها، في كل مرة، النبتة برمتها." (نيتشه، 2003، ص: 27)

تحليل النتائج:

من بين النتائج التي يمكن استخلاصها من هذه المقاربة الجينيالوجية هو أن مهمة الجينيالوجيا لا تتوقف على مجرد الكشف عن طبيعة هذا المنعطف القيمي وإنما نقد الأسس التي قام عليها، والدعوة إلى العودة إلى الفلسفة الحيوية التي كانت قائمة في العصر الهليني قبل سقراط والأديان التوحيدية. ومنه نقد الفلسفة النسقية التي طالما قدست النظام القائم على اللوغوس. ثم الكشف بأن القيم ليست كذلك في ذاتها، لذلك يجب الذهاب إلى ما وراء القيم، ومنه إلى ما وراء ميتافيزيقا الخير والشر، لأنهما



ليس كذلك في ذاتهما، وإنما مجرد تصنيفات ميتافيزيقية قائمة في أساسها على المنفعة والعادة والنسيان والخطأ. إن القيم في أساسها هي مسألة "المنظور" فقط [وهو ما سنوضحه في مقال لاحق]. وبالعودة إلى مجازة هذه التصنيفات القيمية: الخير والشر، العدل والظلم، الحقيقة والخطأ.. دعوة لمجازة الميتافيزيقا نفسها، وتأکید على منظورية القيم ونسبيتها.

خاتمة:

إجمالاً، يمكن القول أن المقاربة الجينياالوجية كشفت عن حدوث منعطف قيمي وأخلاقي في تاريخ الميتافيزيقا الغربية. ولعل ما ساعد على ذلك هو امتلاك الفيلسوف لـ "الحس التاريخي". (نيتشه، 2006، ص: 20) وكذلك استثماره لمعرفته الفيلولوجية في حقل الفلسفة. وهكذا فالتوليف بينهما هو ما قاده إلى اصطناع المنهج الجينياالوجي، الذي كان له الأثر الكبير في الفلسفة المعاصرة. إذ كشف أنه مع سقراط تم نقل المعركة من مستوى الصراع المادي الجسدي الحيوي، إلى مستوى الصراع العقلي الجدلي الحجاجي. (نيتشه، 2010 (ب)، ص: 27، 28) ولذلك فهو يعتبر سقراط وفلسفته عرض من أعراض انحطاط الحضارة الانسانية وتوجهها نحو احتضارها الأخير، حيث يقول: « ذلك الذي كان سبب موت التراجيديا، (أي سقراط) أب سقراطية الأخلاق، الجدل، هدوء الإنسان وقلة متطلباته - كيف؟ ألا تكون هذه السقراطية علامة انحطاط الغرائز، واستنزافها ومرضها وتحللها الفوضوي. » (نيتشه، 2013، ص: 128) مما يعني أنه هو من استبدل معيار الحكم من الاقتدار الحيوي إلى العقل النظري، فلم تعد القيمة تستمد من القدرة على الحياة ومشتقاتها المتمثلة في قيم الشجاعة والقوة والرقص، أي أن القيم لم تعد تظهرها فيزيولوجيا للعرق الآري الأشقر، وإنما أصبحت مرتبطة بقوة الحجة وتماسكها المنطقي، إنها عرض من أعراض انحطاط فيزيولوجي أصاب فيزيولوجيا البشر

فتحولوا إلى مرضى وهنين يشنون على كل من يدعو إلى قيم الضعف والاستصغار والانحطاط. أما الأديان التوحيدية فستجد في الأفكار الأخلاقية لسقراط وأتباعه سندا لإتمام عملية القلب القيمي، فباسم العقل والأخلاق ستتم الدعوة إلى التسامح والسلم والأخوة والإنسانية والحرية والتضامن. كما نخلص أيضا إلى أن القيم ليست كذلك في ذاتها، إذ أنها تستمد قيمتها من خارج ذاتها عكس ما كان يدعيه الميتافيزيقيون، ومنه فهي نسبية ومتنوعة ومختلفة باختلاف الافراد والجماعات الذين ساهموا في إنتاجها، لذلك فإن الفيلسوف يذهب إلى ما وراء القيم، وما وراء الخير والشر، لأن القيم بعيدا عن التصنيفات الميتافيزيقية، هي دائما في خدمة مصالح ومنافع فئة معينة.

قائمة المصادر والمراجع:

1_ قائمة المصادر:

أ/ باللغة العربية:

- نيتشه، فريدريك. (2003). ما وراء الخير والشر. تر: جزيلا فالور حجار. مراجعة: موسى وهبة. ط 1. لبنان: دار الفارابي.
- نيتشه، فريدريك. (2006). جينالوجيا الأخلاق. تر: مُحمَّد الناجي. إفريقيا الشرق. المغرب: الدار البيضاء.
- نيتشه، فريدريك. (2010) (أ). في جينالوجيا الأخلاق. تر: فتحي المسكيني. مراجعة: مُحمَّد محبوب. ط 1. تونس: منشورات دار سيناترا.
- نيتشه، فريدريك. (2010) (ب). غسق الأوثان. تر: علي مصباح، ط 1. لبنان: منشورات الجمل.
- نيتشه، فريدريك. (2013). الفجر. تر: الناجي مُحمَّد، ط 1. المغرب: إفريقيا الشرق.

- نيتشه، فريدريك. (2015). **عدو المسيح**. تر: جورج ميخائيل ديب. ط 2، لبنان: دار الحوار.
ب/ باللغة الأجنبية:

- Frédéric, Nietzsche. (1969). **Le livre du philosophe**. traduction et présentation d'Agéle Kremer-Marietti. bibliographie mise a jour (2014) par Laurent Giassi. France : Flammarion.
- Frédéric, Nietzsche. (1995). **La Généalogie de la morale**, trad. Henri Albert, Tunis: Cérès Éditions

2_ قائمة المراجع:

- أندلسي، محمد. (2005). **نحو سياسة جديدة للكتابة في الفلسفة**، مجلة عالم الفكر، المجلد 33، العدد 4. الكويت.
- أندلسي، محمد. (2006). **نيتشه وسياسة الفلسفة**. ط 1. المغرب: دار توبقال.
- بنعبد العالي، عبد السلام. (2000). **أسس الفكر الفلسفي المعاصر مجازة الميتافيزيقا**. ط 2. المغرب: دار توبقال للنشر.
- دولوز، جيل. (1993) (أ). **نيتشه والفلسفة**. تر: أسامة الحاج. ط 1. لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- دولوز، جيل. (1993) (ب). **نيتشه**، تر: أسامة الحاج، ط 1. لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- عطية، عبد الحليم. (2007). **القيم عند نيتشه**. مجلة الملتقى، العدد 16، المغرب.



- فوكو، ميشيل. (1988). **جينينالوجيا المعرفة**. تر: أحمد السطاتي، عبد السلام بنعبد العالي. المغرب: دار توبقال.
- كانط، إيمانويل. (2002). **تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق**. تر: عبدالغفار مكاوي. ط 1. ألمانيا: منشورات الجمل.
- كانط، إيمانويل. **نقد العقل المحض**. تر: موسى وهبة. لبنان: مركز الانماء القومي.